يحمل إليّ رأس"١!

وأُتي أبو بكر برأس، فقال: بغيتم! أي إن هذا من فعل أهل البغي والظلم لا من فعل أهل الإيمان.

قال الإمام الزهري: لم يؤت إلى النبي ﷺ برأس، وأُتي أبو بكر برأس فقال: لا يؤتى بالجيف إلى مدينة رسول الله ﷺ. وأول من أُتي برأس: ابن الزبير٢

وعلى هذا استقر الفقه الإسلامي، ورجحه المحققون من علمائه. يقول ابن عابدين في حاشيته: لو تمكن من كافر حال قيام الحرب: ليس له أن يمثل به٣.

واستثنى بعض الفقهاء: من كان مثَّل بالمسلمين، فيجوز أن يُمثَّل به قصاصا، استنادا لما فعله النبي ﷺ بالعُرَنيين٤. ولكن هذا لم يكن في الحرب، إنما هو حكم القضاء عليهم، بما قتلوا وسرقوا وعاثوا في الأرض فسادًا.

* * *

الفصل السادس

١ عبد الرزاق الصنعاني ٥/ ٣٠٦، والبيهقي : السنن الكبرى (٩/ ١٣٢).

٢ انظر: المصدر السابق

٣ حاشية ابن عابدين (٤/ ١٣١)

٤ متفق عليه- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير (٢٧٩٥) وصحيح مسلم ، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص (٣١٦٢) عن أنس بن مالك

obeikandl.com

غزوة بَنِي النّضِيرِ
رَبِيعٍ الأوّلِ ٤ هـ - أغسطس ٦٢٥ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

كان يهود بنو النضير بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بينه الدستور كما ذكرنا، ولكن طبيعة الشر والغدر المتأصلة في اليهود أبت إلا أن تحملهم على نقض عهدهم، ومحاولة قتل النبي ﷺ أكثر من مرة ، فأرسل إليهم النبي أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، ثم أمهلهم ﷺمهلة للخروج، وتجهز بنو النضير للخروج اعترافًا بجريمتهم، ولكن أرسل إليهم المنافقون أن اثبتوا ونحن معكم، فرجع اليهود عن قرار الخروج، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فخرج إليهم ﷺ في جيشه فحاصرهم، حتى استسلموا، واشترط عليهم ﷺ ألا يخرجوا معهم السلاح، ولهم أن يخرجوا معهم من أموالهم ما حملته الإبل، ودماؤهم مصونة لا يسفك منها قطرة، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه، وهدموا بيوتهم كيلا يستفيد منها المسلمون، وساروا، فمنهم من نزل خيبر على بعد مائة ميل من المدينة، ومنهم من نزل في ناحية " جرش" – أو أذرعات - بجنوب الشام، ولم يسلم منهم إلا اثنان. ونزلت سورة الحشر تعقب على هذه الغزوة١ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : تحاشي القائد الإسلامي لمحاولات الغدر:

أرسل يهود النضير إلى النبي أن أخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك، وليخرج منا

---

١ انظر أحداث هذه الغزوة في : ابن هشام ٣/ ١٩٩، وابن سعد ٢ / ١- ٤٠، والطبري ٣/ ٣٦، والواقدي ٣٥٣، البلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٦٣، وابن سيد الناس ٢/ ٤٨، وابن كثير ٤/ ٧٤، و ابن القيم : زاد المعاد ٢/ ١٨٥، والمقريزي ١٧٨، ابن حزم :جوامع السيرة ١ / ١٨١)، والصالحي - (ج ٤ / ص ٣١٨) ومصطفى السباعي ٦١

obeikandi.com

ثلاثون حبراً فإن صدقوك وآمنوا بك آمناً بك، - ولم يقصدوا بذلك المناظرة العلمية النزيهة، بل قصدوا الغدر وقتل النبي، - فلما غدا عليهم النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه قال بعضهم لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أن يموت قبله، فأرسلوه إليه أن أخرج في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل، واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك، فأعلم أخوها النبي -ﷺ بذلك- فرجع[1]

وفي هذا الموقف دلالة على مشروعية أن يأخذ القائد الحيطة في حال رفع معلومات تفيد بجود خطر يهدده إذا التقى بعدوه في لقاء دبلوماسي أو فكري، وأن يعلن القائد تغيبه عن مثل هذه الاجتماعات التي فيها شبهة تشي بوجود مآمرة تحاك ضده شخصيًا !

المطلب الثاني : الغدر صفة أصيلة من صفات يهود :

خرج رسول الله ﷺ يوم السبت في نفر من أصحابه فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيّ [2] - رِضْوَانُ اللهّ عَلَيْهِم - فصلى فى مسجد قباء، ثم أتى بنى النضير، يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك الْقَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ اللّذَيْنِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيّةَ الضّمْرِيّ ، لِلْجِوَارِ الّذِي كَانَ رَسُولُ اللهّ ﷺعَقَدَ لَهُمَا، وإنما يطالبهم النبي بمساعدته في هذه الدية وفق بنود الدستور الذي كتبه معهم، والذي يقتضي تعاون كل الفصائل في قضاء ديات وديون الدولة..

فَلَمّا أَتَاهُمْ رَسُولُ اللهّ ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا : نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نُعِينُك عَلَى مَا أَحْبَبْت، مِمّا اسْتَعَنْت بِنَا عَلَيْهِ. ثُمّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا : إنّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَرَسُولُ اللهّ ﷺ إلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ -: فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ ؟ وقالوا فيما بينهم: نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة، فنبيعهم من قريش[3]، فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحّاشِ بْنِ كَعْبٍ ، أَحَدُهُمْ فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ [4] ! ..

فَقَالَ لَهُمْ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ – وكان رجلاً عاقلاً - : لَا تَفْعَلُوا ! فَوَاَللهّ لَيُخَبّرَنّ بِمَا

---

١ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٢ ابن هشام ٢ / ١٨٩

٣ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٤ ابن هشام ٢ / ١٨٩

هَمَمْتُمْ بِهِ١.. يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا٢

لكن غَلبت شياطينهم عقلائهم ، فَصَعِدَ عَمْرُو بْنُ جَحّاشٍ – لعنه الله – لِيُلْقِيَ الصَخْرَةً عَلَي النبي ﷺ٣

ورغم أن الغدر ليس من شيم الحلفاء الشرفاء إلا أن اليهود درجوا على نقض العهود وأدمنوا الخيانة والخسة حتى مع أبناء وطنهم وحلفائهم ..

ومواقف التاريخ تؤكد في كل مرة أنهم أهل غدر وخيانة ..

وصدق الله إذ يقول فيهم : "الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ " [الأنفال:٥٦]

المطلب الثالث : حكمة القائد في مواجهة الاغتيال:

لما هم القوم بالغدر، ولما أشرف "ابن جحاش" بالصخرة، وقد أوشك أن يلقيها على رأس النبيﷺ، أَتَى رَسُولَ اللهّ ﷺ الْخَبَرُ مِنْ السّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فَقَامَ فورًا – كأنه يريد حاجة٤– وَخَرَجَ رَاجِعًا إلَى الْمَدِينَةِ٥ .

فبينما اليهود على ذلك – ينتظرون أن يعود النبيﷺ إلى مكانه بعد أن يقضي حاجته لينفذوا جريمتهم الشنعاء – وقد دأبوا – عليهم لعائن الله – على سفك دماء الأنبياء والمرسلين – إذ جاء جاء من اليهود من المدينة، فلما رأى إخوانه من اليهود يتآمرون على قتل النبي ﷺ قال لهم: ما تريدون ؟ قالوا: نريد أن نقتل محمدًا ونأخذ أصحابه، فقال لهم: وأين محمد ؟ قالوا: هذا محمد قريب، فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمدًا داخل المدينة، فسقط في أيديهم٦.

وأيقنوا أن النبي أُخبر بما هموا به .. !

واستبطأ الصحابة النبي ﷺ، وراث عليهم خبره، فلما يئسوا من ذلك قال أبو بكر: ما

---

١ زاد المعاد ٣/ ١١٥
٢ الصالحي ٤/ ٣١٨
٣ زاد المعاد ٣/ ١١٥
٤ الصالحي ٤/ ٣١٨
٥ ابن هشام ٢/ ١٨٩
٦ الصالحي ٤/ ٣١٨

مقامنا هاهنا بشئ ! لقد توجه رسول الله ﷺ لأمر –، فقاموا في طلبه، وحينئذ قال حيي بن أخطب – كاذبًا –: "لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته ونقريه" وندمت يهود على ما صنعوا. ١

وطفق أصحاب رسول الله يبحثون عنه، وفي طريقهم لَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنْ الْمَدِينَةِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ رَأَيْته داخلاً الْمَدِينَةَ . فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِّ – ﷺ –حَتّى انْتَهَوْا إلَيْهِﷺ فَأَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ ، بِمَا كَانَتْ الْيَهُودُ أَرَادَتْ مِنْ الْغَدْرِ بِهِ٢..

وفي هذا الموقف نرى عبقرية التصرف – من القائد – أثناء شروع العدو في تنفيذ مهمة الاغتيال والخيانة، حيث تظاهر برغبته في قضاء حاجة عن قرب، وتسلل من الموقف بهدوء وكياسة، ثم أعلن عليهم الحرب بعدما وصل إلى مقر قيادته بين جنوده .

المطلب الرابع : أهمية ظهور جبهة المعارضة في صفوف العدو:

قال كنانة بن صويراء – لليهود – : "هل تدرون لما قام محمد ؟ "

قالوا: لا والله ما ندري، وما تدري أنت !

قال: "بلى والتوارة إني لادري، قد أخبر محمد بما هممتم به من الغدر، فلا تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله، وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم به من الغدر، وإنه لآخر الانبياء، وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون، فجعله الله حيث شاء.وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تغير، ولم تبدل: أن مولده بمكة، وأن دار هجرته يثرب، وصفته بعينها ما تخالف حرفا مما في كتابنا، وما يأتيكم به أولى في محاربته إياكم، ولكأني أنظر إليكم ظاعنين يتضاغى صبيانكم قد تركم دوركم خلوفًا وأموالكم، وإنما هي شرفكم، فأطيعوني في خصلتين، والثالثة لاخير فيها" !

قالوا: ما هما ؟

قال: " تسلمون وتدخلون مع محمد، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من علية أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم "

قالوا: لا نفارق التوراة وعهد موسى.

قال: " فإنه مرسل إليكم: اخرجوا من بلدي فقولوا: نعم، فإنه لايستحل لكم دمًا

---

١ الصالحي ٤ / ٣١٨، ٣١٩

٢ ابن هشام ٢ / ١٨٩

ولا مالاً، وتبقى أموالكم لكم، إن شئتم بعتم، وإن شئتم أمسكتم "،

قالوا: أما هذا فنعم.

قال سلام بن مشكم: " قد كنت لما صنعتم كارها، وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من داري، فلا تعقب يا حيي كلامه، وأنعم له بالخروج، واخرج من بلاده ".

قال: افعل، أنا أخرج١.

ومن أعظم الفوائد التي تعود على الجيش الإسلامي حال ارتباك عدوه؛ ظهور معارضة قوية في صفوف العدو، تعمل على تخزيل الجبان وإرباك الغشوم وكسر شوكة الظلوم في صفوف الأعداء .. فقد نجم عن فعلتهم النكراء وصنيع الرسول –ﷺ– الحكيم – هذه المعارضة التي كانت من أسباب هزيمة يهود بني النضير معنويًا ..

وهو عقاب إلهي وجزاء كوني لكل من يخرج عن آداب الحروب . فقد أثبت التاريخ بمثل هذه المواقف أن الخسران والدمار دائمًا يتجرعه الخصم الخائن الغادر!

المطلب الخامس: إمهال العدو ليتأهب للجلاء :

وهنا نجدنا أمام موقف الرحمة النبوية بالخصوم الذي شرعوا في الغدر والخيانة، فقابل القائد الإسلامي إساءتهم بإحسان لا يخل بالحق في أخذ القصاص من الغادر ، فجمع عليهم الرحمة والعقاب في آن واحد ، فنراه قد أمهلهم وقتًا كافيًا قبل إخراجهم من الوطن الذي خانوه والدولة التي لم يحترموا فيها دستورها ولا عهد رئيسها ..

لقد بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهّ – ﷺ – في رسالة يحملها محمد بن مسلمة الأوسي٢، فأقبل عليهم ووبخهم – رضوان الله تعالى عليه –، وقال: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم :"اخْرُجُوا مِنْ الْمَدِينَةِ ، وَلَا تُسَاكِنُونِي بِهَا ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وَقَدْ أَجّلْتُكُمْ عَشْرًا ، فَمَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا ، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ٣".

وأخبرهم – في تقرير تفصيلي – بما هموا به من ظهور عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصخرة، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً٤، فَأَقَامُوا أَيّامًا يَتَجَهّزُونَ ..

---

١ الصالحي ٤ / ٣١٩

٢ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٣ ابن هشام ٢ / ١٩١

٤ الحلبي ٢/ ٣٨٧

ولم يأمر رسول الله ﷺ بأي إجراء عسكري ضدتهم خلال هذه الأيام، بيد أن العرف السائد في الأمم الغابرة والحاضرة، أن القادة والزعماء يجهزون على أي فصيل داخل الشعب يشرع في التآمر على السلطان، فيعمل السلطان فيهم القتل والسلب والنهب وهتك الأعراض .. كما فعل عبد الناصر في فصيل " الإخوان"، لما رُفعت إليه تقريرات تفيد بتحركات لأعضاء من جماعة الإخوان المسلمين ضده، فباغتهم دون تثبت أو تحقيق، وأخذ الحابل بالنابل، وسجن الأبرياء، فسفك الدماء، وصادر الأموال، وهتك الأعراض، وقتل العلماء..

بيد أن أبا القاسم لم يقابل الغدر بالغدر، إنما وضع الجريمة في نصابها، وقدر لها عقوبتها، وأمهل المجرمين، ليتجهزوا بما فيه الكفاية للرحيل، ليرحم بذلك الصغير، ويشفق بذلك على الكبير، لاسيما الأرامل والشيوخ والعجائز، فهؤلاء لا ذنب لهم بما قدمت أيدي المجرمين.

المطلب السادس : دور المنافقين في تثبيت الأعداء!

عزم اليهود على الخروج، لولا أن المنافقين ثبتوهم، فَقَدْ كَانَ رَهْطٌ من المنافقين مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِّ بْنُ أُبَيّ ابْنِ سَلُولَ ووَدِيعَةُ وَمَالِكُ بْنُ أَبِي قَوْقَلٍ وَسُوَيْدُ وَدَاعِسٌ، قَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ : أَنْ اُثْبُتُوا وَتَمَنّعُوا ، فَإِنّا لَنْ نُسَلّمَكُمْ إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ . فَتَرَبّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا١ ..

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِّ بْنُ أُبَيّ – وأكد عليهم – في رسالة يحملها سويد، وداعس٢ – : أَنْ لَا تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ فَإِنّ مَعِي أَلْفَيْنِ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حِصْنَكُمْ فَيَمُوتُونَ دُونَكُمْ وَتَنْصُرُكُمْ قُرَيْظَةُ وَحُلَفَاؤُكُمْ مِنْ غَطَفَانَ ، وَطَمَعَ رَئِيسُهُمْ حَيّ بْنُ أَخْطَبَ فِيمَا قَالَ لَهُ ابن أبي، وَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ يَقُولُ: إِنّا لَا نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك٣ ..

المطلب السابع : المنافقون واليهود حليفان ضعيفان :

فقد نهاه أحد سادات بني النضير وهو سلام بن مشكم وقال له: منتك نفسك والله يا حيي الباطل، فإن قول ابن أبي ليس بشيء، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب

---

١ ابن هشام ٢ / ١٩١

٢ الصالحي ٤ / ٣٢٠

٣ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥

محمداً فيجلس في بيته ويتركك؛ ألا ترى أن أرسل إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنو قريظة، فقال له: لا ينقض رجل واحد منا العهد فأيس من بني قريظة١. وأيضاً قد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم في صياصيهم أي حصونهم، وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه. فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حروبهم. أي فإنه إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت بنو النضير وقريظة مع الأوس، فكيف يقبل قوله، فقال حيي: نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله. قال سلام: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا، وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا، فأبى حيي إلا محاربة رسول الله . وقالت له بنو النضير: أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك، فأرسل إلى رسول الله ﷺ بما ذكر٢

وقد سطر القرآن هذه الشراكة بين المنافقين وإخوانهم اليهود، لاسيما في مثل هذه المواقف عبر التاريخ، فقال الخالق سبحانه :

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" [الحشر:١١]

المطلب الثامن : الحصار وإنزال العقاب بالغادرين :

لما جاء إلى النبي خبر رفض اليهود مغادرة المدينة ..

قال :" الله أكبر !!"، فقال أصحابه : الله أكبر٣ ..

وَأَمَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِالتّهَيّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالسّيْرِ إِلَيْهِمْ. وَأَمّرَ أَبَا لُبَابَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ عَلَى الصّلَاةِ٤ . ثُمّ سَارَ بالجيش الإسلامي، وحملت مع رسول الله ﷺ قبة من

---

١ وكان ابن سلول قد أرسل إلى كعب بن أسد القرظي – سيد بني قريظة – يكلمه أن يمد يهود النضير، ويعاونوهم في الحرب على النبي، فقال: "لا ينقض رجل واحد منا العهد." فيئس ابن أبي من بني قريظة (الصالحي ٤ / ٣٢٠)

٢ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٣ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥

٤ ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣

خشب ، عليها مسوح أرسل بها سعد بن عبادة رضي الله عنه١ .. وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَحْمِلُ اللّوَاءَ، حَتّى نَزَلَ الجيش الإسلامي بِهِمْ، ووصل رسول الله ﷺ إلى أرض العدو، وصلى بجنوده العصر بفناء العدو٢..

ولما جاء وقت العشاء رجع رسول الله ﷺ إلى بيته في عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس، واستعمل على العسكر علي بن أبي طالب - ويقال أبا بكر - وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا ثم أذن بلال بالفجر، فغدا رسول الله ﷺ في أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس، ودخل القبة، وكان رجل من يهود يقال له غزول، وكان أعسر رامياً يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فوصل نبله تلك القبة، فأمر بها فحولت. وفي ليلة من الليالي فُقد علي رضي الله تعالى عنه قرب العشاء، فقال الناس: يا رسول الله ما نرى علياً، فقال: دعوه أي اتركوه، فإنه في بعض شأنكم، فعن قليل جاء برأس الرجل الذي يقال له غزول الذي وصل نبله قبته ، كمن لي عليّ حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة، فشد عليه فقتله وفرّ من كان معه، فأرسل رسول الله ﷺمع عليّ أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة، فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول وفروا من عليّ فقتلوهم٣..

وحَاصَرَهُمْ المسلمون سِتّ لَيَالٍ، وفيها نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ٤.

المطلب التاسع : إحراق بعض زروع العدو

وخلال فترة الحصارة – أو قرب نهايته - أَمَرَ رَسُولُ اللهّ ﷺ بِقَطْعِ النّخِيلِ وَالتّحْرِيقِ فِيهَا ، واستعمل على قطع النخل أبا ليلى المازني وعبدالله بن سلام. وكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبدالله يقطع اللين٥.فَنَادَوْهُ أَنْ يَا مُحَمّدُ قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنْ الْفَسَادِ ، وَتَعِيبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ فَمَا بَالُ قَطْعِ النّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا٦ ؟

---

١ الصالحي - ٤ / ٣٢٢
٢ الحلبي ٢/ ٣٨٧
٣ الحلبي ٢/ ٣٨٧ ، الصالحي ٤ / ٣٢٢
٤ ابن هشام ٢ / ١٩٠
٥ الحلبي ٢/ ٣٨٧
٦ ابن هشام ٢ / ١٩١

ولما قطعت العجوة شق نساء اليهود الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل١ .

وقال اليهود من خلف الحصون للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون، وحينئذٍ وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء٢

فأنزل الله : "مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ " [الحشر:٥]

وكان جميع ما قطعوا وحرقوا ست نخلات٣ .

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعى فى أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام و القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، فالمسألة إذاً من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية . قال العلماء: وإنما كان قصد الرسول ﷺبتصرفه هذا فى نخيل بنى النضير – قطعاً أو كفاً – تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها، إرشاداً وتعليماً للأئمة من بعده .

وهذا القول من إباحة قطع شجر الكفار وإحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك و الثورى وأبى حنيفة و الشافعى وإسحاق وجمهور الفقهاء٤ .

وكره بعضهم ذلك، وهو قول الأوزاعي قال الأوزاعي :"ونهى أبو بكر الصديق أن يقطع شجرا مثمرا أو يخرب عامرا وعمل بذلك المسلمون بعده" ٥

وروى عن ليث ابن سعد وأبى ثور و الأوزاعى بعدم جوازه٦ .

ومن ثم أجازه أحمد للضرورة، فقال :" وقد تكون في مواضع لا يجدون منه بدًا فأما بالعبث فلا تحرق"٧

---

١ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٢ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٣ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٤ محمد سعيد رمضان البوطي ١٩٢

٥ سنن الترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب في التحريق والتخريب (١٤٧٢) وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي

٦ محمد سعيد رمضان البوطي ١٩٢

٧ سنن الترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب في التحريق والتخريب (١٤٧٢) وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي.

وهو الذي نختاره، لأمر رسول الله الجازم في كل سرية يبعثها بعدم التعرض للـزروع أو دور العبادة..

ويستفاد مما سبق١ :

١- أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢- أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها كـأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنه لا منـاص مـن قطـع الأشـجار وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كـما فعـل النبـي ﷺ هنـا وفي حـصن ثقيف.

٣- أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهـدم والقلـع يجـب أن يخـرج عـلى أسـاس هـذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب، إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا .

المطلب العاشر : إسلام يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ :

وخلال فترة الحصار، أسلم مِنْ بَنِي النَّضِيرِ رَجُلَانِ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَأَبُو سَـعْدِ بْـنُ وَهْبٍ، أَسْلَمَا عَلَى أَمْوَالِهِمَا فَأَحْرَزَاهَا ٢.

قال أحدهما لصاحبه: والله إنك لتعلم أنه رسول الله ﷺفما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا، فنزلا من الليل وأسلما فأحرزا أموالهما.

ثم قال رَسُولَ اللهِّ ﷺ:لِيَامِينَ أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمّك ، وَمَا هُمْ بِـهِ مِـنْ شَـأْنِي ؟ فَجَعَلَ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ لِرَجُلِ جُعْلًا- وهو عشرة دنانير- عَلَى أَنْ يَقْتُلَ لَهُ عَمْرَو بْنَ جِحَاشٍ ٣ الذي أراد أن يلقي الحجر على رسول الله ، فقتله غيلة فسر بذلك النبي .

وهو مشهد قلما نراه في الحروب، أن ينتقل بعض الجنود من خصم إلى خـصم، فثمـة حالة من التأثر غيرت من توجه هذين الجنديين (يَامِينُ وابْـن وَهْـبٍ)، وحالـة مـن يقظـة الضمير والاستفاقة من هوال قيامهم بمقاتلة رسول من رسل الله ..

---

١ انظر : محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، ٢/ ٢٦٥-٢٦٩، وعلي محمد الصلابي ٢/ ١٦٥

٢ ابن هشام ٢ / ١٩٢

٣ ابن هشام - ٢ / ١٩٢

وهي أخلاق الرحمة التي شاهدها الجنديان أثناء فترة الحصار، الأمر الذي حولهم من كونهم أعداء لرسول الله إلى جنود محبين تحت لوائه .ليس هذا فحسب، بل يقتلوا من آذى رسول الله ﷺ من قومهم وأقاربهم !

المطلب الحادي عشر : استسلام يهود النضير :

ولا زال عبدالله بن أبي ابن سلول يبعث لبني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم، فانتظروا ذلك، ولم يحصل لهم منه شيء، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيي : أين نصر بن أبيّ الذي زعمت؟ فيقول حيي: ما أصنع، هي ملحمة كتبت علينا١.

وانتظر يهود النضير – طيلة فترة الحصار–، النصرة والمدد الذي وعدهم إياه ابن سلول، ومنتهم به قريظة هي الأخرى، وكذلك غطفان، فقد دب الرعب في قلوب الخائنين، فَاعْتَزَلَتْهُمْ قُرَيْظَةُ وَخَانَهُمْ ابْنُ أُبَيّ وَحُلَفَاؤُهُمْ مِنْ غَطَفَانَ ، وَلِهَذَا شَبّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِصّتَهُمْ وَجَعَلَ مَثَلَهُمْ " كَمَثَلِ الشّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قَالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنْكَ"٢

ولما اشتد الحصار على اليهود– وهم أهل جبن وخور– وَقد قَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ الرّعْبَ، أَرْسَلُوا إلَيْ النبي ﷺ : نَحْنُ نَخْرُجُ عَنْ الْمَدِينَةِ.. فَأَنْزَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهَا بِنُفُوسِهِمْ وَذَرَارِيّهِمْ وَأَنّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ إلّا السّلَاحَ وَقَبَضَ النّبِيّ ﷺ الْأَمْوَالَ و السّلَاحُ والأرض والديار، ووَجَدَ مِنْ السّلَاحِ خَمْسِينَ دِرْعًا ، وَخَمْسِينَ بَيْضَةً وَثَلَاثَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا، وَكَانَتْ بَنُو النّضِيرِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللهّ ﷺ لِنَوَائِبِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُخَمّسْهَا لِأَنّ اللهّ أَفَاءَهَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ٣ .

قَالَ مَالِكٌ : خَمّسَ رَسُولُ اللهّ ﷺقُرَيْظَةَ ، وَلَمْ يُخَمّسْ بَنِي النّضِيرِ. لِأَنّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا بِخَيْلِهِمْ وَلَا رِكَابِهِمْ عَلَى بَنِي النّضِيرِ كَمَا أَوْجَفُوا عَلَى قُرَيْظَةَ وَأَجْلَاهُمْ إلَى خَيْبَرَ٤..

وَقَالَ رسول اللهﷺ معبرًا عن أهمية هذا الفصيل بالنسبة لليهود جميعًا : هَؤُلَاءِ فِي

---

١ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٢ ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ١١٥

٣ ابن القيم : زاد المعاد – ٣/ ١١٥ ، ابن هشام ٢/ ١٩١

٤ ابن القيم : زاد المعاد – ٣/ ١١٥

قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ١ .

ولما عزم اليهود على ترك الدينة، صاروا ينقضون العمد والسقوف، وينزعون الخشب حتى الأوتاد، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً٢.

وخرجوا- من ديارهم - مظهرين التجلد: وخرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلي الذهب والفضة٣، مَعَهُمْ الدُّفُوفُ وَالْمَزَامِيرُ وَالْقِيَانُ يَعْزِفْنَ خَلْفَ الرجال وَإِنّ فِيهِمْ لِأُمّ عَمْرٍو المطربة، تغني ، بِزُهَاءِ وَفَخْرٍ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ مِنْ حَيّ مِنْ النّاسِ فِي زَمَانِهِمْ !!٤ .

فجعلوا يمرون قطارا في أثر قطار، وقد تحملوا على ستمائة بعير٥.

ونادى أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، ورفع مسك جمل وقال: هذا مما نعده لخفض الأرض ورفعها، فإن تكن النخل قد تركناها فإنا نقدم على نخل بخيبر٦.

وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن.

فَكَانَ أَشْرَافُهُمْ مَنْ سَارَ مِنْهُمْ إلَى خَيْبَرَ : سَلاّمُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَكِنَانَةُ بْنُ الرّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ ، وَحُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ . فَلَمّا نَزَلُوهَا دَانَ لَهُمْ أَهْلُهَا .

والباقون ساروا إلى الشام: إلى أذرعات. وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار، لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده، فلما أجليت بنو النضير قال آباء أولئك: لا ندع أبناءنا، وأنزل الله تعالى "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "[البقرة٢٥٦]٧. وذلك من سماحة الشرع الإسلامي الكريم.

هذا، ويستفاد من موقف جماعة ابن سلول مع اليهود :

---

١ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥
٢ الحلبي ٢/ ٣٨٧
٣ الحلبي ٢/ ٣٨٧
٤ ابن هشام ٢ / ١٩١
٥ الصالحي ٤ / ٣٢٤
٦ الصالحي ٤ / ٣٢٤
٧ الحلبي ٢/ ٣٨٧

أن دور المنافقين في مثل هذه المواجهات هو دور دعائي باعث للبلبة والإرباك، دون اتخاذ أي إجراءات عملية حربية مع العدو في مسألة التحالف معه .

من آداب الحروب استخدام أساليب الحصار دون سفك أو نهب أو اقتحام غشوم لسكنات الأبرياء .. فما فعله رسول الله ﷺ هو استخدام أسلوب الضغط بالحصار أو بتقطيع بعض الأشجار ولم يستخدمﷺ أساليب العنف الدموي والسلب والنهب وهتك الأعراض .. كما كان يفعل التتار في حصارهم للقرى، حيث تكون أيام الحصار أيام مذابح ونهب وسلب وهتك للأعراض، وفي كثير من الأحيان يحاصرون القرية، ويمنعون الماء عن أهلها، ثم يرسلون من يضع السم في الآبار، فيموت سكان القرية عن آخرهم!

المطلب الثاني عشر : تعميق الإيثار بين جند الله :

وَخَلّوْا الْأَمْوَالَ لِرَسُولِ اللهّ ﷺ فَكَانَ لِرَسُولِ اللهّ ﷺ خَاصّةً يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ فَقَسّمَهَا رَسُولُ اللهّ ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ . إلّا أَنّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ ذَكَرَا فَقْرًا ، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ اللهّ ﷺ١ .

وقد قَسَمَ رَسُولُ اللهّ ﷺأَمْوَالَ بَنِي النّضِيرِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ – أفقر فصيل في الدولة الإسلامية – لِأَنّ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ شَاطَرَهُمْ الْأَنْصَارُ ثِمَارَهُمْ ، وكان المهاجرون في دور الانصار وأموالهم. فأراد النبي أن يرفع هذا العبأ عن الأنصار، فيمنح هذا الفيىء للمهاجرين على ألا يأخذوا شيئًا من أموال الأنصار ..

فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ادع لي قومك، قال ثابت: الخزرج يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ: " الانصار كلها ! " فدعا له الاوس والخزرج٢، فتكلم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، من إنزالهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم. ثم قال لهم: "إنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ أَمْوَالَ بَنِي النّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَأَقَمْتُمْ عَلَى مُوَاسَاتِهِمْ فِي ثِمَارِكُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْطَيْنَاهَا لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَكُمْ وَقَطَعْتُمْ عَنْهُمْ مَا كُنْتُمْ تُعْطُونَهُمْ مِنْ ثِمَارِكُمْ"٣ ..

---

١ ابن هشام – ٢ / ١٩٢

٢ الصالحي ٤ / ٣٢٥

٣ ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣

فقالوا- وما أجمل ما قالوا - : بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت !!١ .

وتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ. فقالا: يا رسول الله بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا حباً لله ولرسوله، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها،

ونادت الأنصار- تؤكد كلام القائدين -: رضينا وسلمنا يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : "اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار٢.. [وأبناء أبناء الأنصار]"٣.

وأنزل الله تعالى فيهم "وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[الحشر:٩]

فكان الرسول أكرم من الأنصار .فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللهّ الْمُهَاجِرِينَ، على ألا يأخذوا من أموال إخوانهم بعد هذا الفيء، فَاسْتَغْنَوْا بِمَا أَخَذُوا وَاسْتَغْنَى الْأَنْصَارُ بِمَا رَجَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ ثِمَارِهِمْ٤.

فقال أبو بكر رضي الله عنه- وقد هزه كرم الأنصار وإيثارهم -: "جزاكم الله يا معشر الانصار خيرًا" وجادت قريحته بفاصل من الشعر يمدح فيه الأنصار٥ .

أما سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ ٦وهذان مِنْ الْأَنْصَارِ شَكَوْا حَاجَة . فأعطاهم على سبيل الاستثناء للضرورة .

وأعطى النبي ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه سيف بن أبي الحقيق، وكان سيفا له

---

١ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٢ الصالحي ٤ / ٣٢٥

٣ الحلبي ٢/ ٣٨٧

٤ ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣

٥ الصالحي ٤ / ٣٢٥

٦ يخطىء ابن القيم – وغيره – في القول بأن ثلاثة من الأنصار شكوا فقرًا لرسول الله في النضير، وذكر أن منهم الحارث بن الصمة (زاد المعاد ٥ / ٦٣)، والصحيح أن الحارث بن الصمة لم يكن في هذه الغزوة، فقد مات شهيدً في مذبحة بئر معونة صفر ٤ هـ، أي قبل هذه المعركة بشهر تقريبًا .

ذكر عند اليهود١. وإنما مُنح سعد – رضوان الله عليه – هذا السيف على سبيل الجائزة والتكريم، فقد كان يطعم الجيش الإسلامي في غزو النضير، وهو صاحب القبة الخشبية، التي جُعلت مقرًا متحركًا لرصد تحركات العدو .

وَكَانَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهّ وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا بِالشّام لَمْ يَشْهَدَا بَدْرًا فَقَسَمَ لَهُمَا رَسُولُ اللهّ ﷺ سَهْمَيْهِمَا فَقَالَا : وَأُجُورُنَا يَا رَسُولَ اللهّ ؟ فَقَالَ " وَأُجُورُكُمَا " . كما أَنّ أَبَا لُبَابَةَ وَالْحَارِثَ بْنَ حَاطِبٍ وَعَاصِمَ بْنَ عَدِيّ خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللهّ ﷺ فَرَدّهُمْ وَأَمّرَ أَبَا لُبَابَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ عَلَى الصّلَاةِ وَأَسْهَمَ لَهُمْ .. وَخَوّاتَ بْنُ جُبَيْرٍ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللهّ ﷺ بِسَهْمِهِ . كما أَنّ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ تَخَلّفَ عَلَى امْرَأَتِهِ رُقَيّةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهّ ﷺ فَضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ فَقَالَ وَأَجْرِي يَا رَسُولَ اللهّ ؟ قَالَ : "وَأَجْرُكَ"٢

وَهَذَا خَاصّ لِلنّبِيّ – ﷺ – فقد أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ لَا يُقْسَمَ لِغَائِبٍ، وقَالَ أَحْمَدُ وَمَالِكٌ وابن القيم وَجَمَاعَةٌ مِنْ السّلَفِ وَالْخَلَفِ: إنّ الْإِمَامَ إذَا بَعَثَ أَحَدًا فِي مَصَالِحِ الْجَيْشِ فَلَهُ سَهْمُهُ٣ .

وقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ :وَلَمْ يَكُنْ النّبِيّ ﷺ يُسْهِمُ لِلنّسَاءِ وَالصّبْيَانِ وَالْعَبِيدِ وَلَكِنْ كَانَ يَحْذِيهِمْ مِنْ الْغَنِيمَةِ٤

الفصل السابع
غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ
شَوّالٍ ٥هـ - فبراير ٦٢٧ م

١ الصالحي ٤ / ٣٢٥
٢ ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣
٣ ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣
٤ ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣

المبحث الأول
ملخص الغزوة

لما تم إجلاء بني النضير، خرج وفد يهودي إلى مكة يدعون قريشًا ويحرضونها على قتال الرسول ﷺ، فأجابت قريش لذلك، ثم تحرك الوفد اليهودي في جولة دبلوماسية بين قبائل العرب، فستجابت غطفان، وبنو فزارة وبنو مرة، وأشجع واتجهت جيوش الأحزاب نحو المدينة، فلما سمع النبي ﷺ بخروجهم، استشار أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بحفره وعمل فيه بنفسه، ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق، إذ لا عهد للعرب بمثله، وكانت عدتهم عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، وكان حُيي بن أخطب أحد اليهود الذين هيجوا قريشا والأحزاب ضد المسلمين، وقد ذهب إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يطلب إليه نقض العهد مع المسلمين، وفكر النبي ﷺ في مصالحة بني قريظة على ثلث ثمار المدينة، ولكن الأنصار رفضوا اعتزازا بدينهم من أن يعطوا الدنية لهؤلاء الخائنين، وبدأ القتال واشتد الحصار، حتى أسلم نعيم بن مسعود أحد زعماء غطفان، فخذل عن المسلمين، حتى فرق بين قريش وحلفائها، وبين بني قريظة، وأوقع في نفوس كل من الفريقين الشك في الآخر، وأرسل الله على الأحزاب ريحًا شديدة، فجعلت تكفئ قدورهم وتمزق خيامهم، فامتلأت نفوس الأحزاب بالرعب ورحلوا . وتوجه المسلمون إلى ديار بني قريظة ، وفرض المسلمون الحصار على بني قريظة، فلما ضاق بهم الأمر نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس، فحكم سعد بأن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن تقسم أموالهم١ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : تحرك التحالف اليهودي الوثني ضد الدولة الإسلامية

أولاً : دور اليهود في بناء هذا التحالف :

١ انظر في تفاصيل هذه الغزوة : الواقدي ٣٦٢، ابن هشام ٣: ٢٢٦، ابن سعد ٢ / ١ : ٤٧، الطبري ٣: ٤٣، والبلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٦٥، ابن سيد الناس ٢/ ٥٤، ابن القيم : زاد المعاد ٢: ٢٨٨،المقريزي: ٢١٥ ، وانظر: مصطفى السباعي ٦٣

خرج وفد مِنْ الْيَهُودِ، يجوب الجزيرة العربية، لـتكوين تحالف يهودي وثنـي للقـضاء على الإسلام، والدولة الإسلامية واحتلال المدينة ونهب خيراتهـا، وكـان عـلى رأس هـذا الوفد القيادات اليهودية الآتية:

١-سَلّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيقِ النّضْرِيّ

٢-حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ النّضْرِيّ

٣-كِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيقِ النّضْرِيّ

٤- هَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيّ

٥- أَبُو عَمّارٍ الْوَائِلِيّ١ .

٦-وَسَلَامِ بْنِ مِشْكَمٍ٢

خَرَجُوا حَتّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكّةَ ، فَدَعَوْهُمْ إلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهّ ﷺوَقَـالُوا : إنّـا سَنكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتّى نَسْتَأْصِلَهُ ، فَقَالَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إنّكُمْ أَهْـلُ الْكِتَـابِ الْأَوّلِ وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ ؟ قَالُوا : بَلْ دِيـنُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقّ..!! فَهُمْ الّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلّذِينَ كَفَـرُوا هَـؤُلَاءِ أَهْـدَى مِـنَ الّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولَئِكَ الّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[النـساء:٥١] ..٣

ثُمّ خَرَجَ الوفد اليهودي إلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ ثُمّ طَاف الوفد فِي قَبَائِـلِ الْعَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إلَى ذَلِكَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ٤.

ونجح اليهود في تكوين أقوى تحالف ضد المسلمين .

ولم من ثم شرعوا في تنفيذ مخطط الإبادة للمسلمين .

وهو تحرك – دون أدنى شك – يكشف عن أكبر مآمرة تحاك من حليف ضد حليفـه، نرى في هذا المشهد كيف يتحول الفصيل إلى جماعة مـن البغـاة، تعمـل عـلى شـق الـصف

---

١ ابن هشام - ٢ / ٢١٤

٢ ابن القيم: زاد المعاد - ٣ / ٢٤٠

٣ ابن هشام ٢ / ٢١٤

٤ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠

الداخلي، والتجسس على الدولة الإسلامية، والتخابر لصالح دولة العدو، والشروع في تأسيس تحالف سري غير شرعي مع قريش.

الأمر الذي ترفضه كل الشرائع والأعراف من سلوك هذا المنحى الأسود .

ثانيًا : تحرك جيش التحالف صوب الدولة الإسلامية :

خرجت جيوش الأحزاب وقد جمعت أمرها على إفناء المسلمين، وكان هذا الجيش يتألف من الفصائل الآتية :

١-جيش قريش، تحت قيادة أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: (٤٠٠٠ جندي) .

٢-جيش غَطَفَانُ ، بقيادة عُيَيْنَة بْنُ حِصْنٍ ، وفِيهم بَنِي فَزَارَةَ

٣- جيش بَنِي مُرّةَ، ، بقيادة الْحَارِث بْنُ عَوْفِ (٤٠٠ جندي)، وهي من بني غطفان.

٤ - جيش أَشْجَعَ ، بقيادة مِسْعَر بْنُ رُخَيْلَةَ[1] (٤٠٠ جندي).

٥- جيش بني أسد، بقيادة طليحة بن خويلد (٤٥٠٠ جندي)

٦- جيش بني سليم، بقيادة سفيان بن عبد شمس (٧٠٠ جندي)، وقد التحقوا بجيش التحالف في (مُرَّ الظهران)..

ومن ثم تجاوز عددهم العشرة آلاف ، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان .

إضافة إلى عدو داخلي في المدينة هو الفصيل اليهودي .

وتجمع فصائل جيش التحالف اليهودي الوثني بهذا الشكل وبهذا الحجم يشي بمدى الجهد الذي بذله الوفد اليهودي – في تحركاته التي جابت الجزيرة – بهدف إعداد جيش عملاق ينهي الوجود الإسلامي إلى غير رجعة .

إضافة إلى تلك الأطماع التي ظهرت وسال لعاب أصحابها، فالمدينة بالنسبة لأعراب الجزيرة صيد ثمين وغنيمة ضخمة، كما أن إفناء المسلمين هدف أسمى بالنسبة للوثنين واليهود على حد سواء .

إنهم شرعوا – في حقيقة الأمر – نحو حرب قذرة، نجح اليهود فيها في الإيقاع بين بني العم وذوي الرحم (المسلمين المهاجرين والوثيين القريشيين)، ونجح اليهود في

---

١ ابن هشام ٢ / ٢١٥

obeikandl.com

تجميع أكبر قدر من المرتزقة والأعراب الذي لا هم لهم إلا السلب والنهب وقطع الطرق .

وإنه العار الذي لحق بالأمة اليهودية صاحبة الكتاب السماوي، لما تحالفت مع الوثنية ضد التوحيد، ومع الأعداء ضد أبناء الوطن .

المطلب الثاني : حفر الخندق :

أولاً : أهمية الشورى والأفكار المستحدثة في الحرب :

رُفعت إلى حضرة النبي ﷺ التقريرات الاستخباراتية، التي تفيد بتحرك جيوش التحالف صوب المدينة، فاسْتَشَارَ الصّحَابَةَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيّ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَدُوّ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ، وهي فكرة دفاعية أثبتت روعتها ونجاحها١ ..

فطفق الناس يهتفون بسلمان، فقال المهاجرون : سَلْمَانُ مِنّا ؛ وَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : سَلْمَانُ مِنّا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ سَلْمَانُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ٢ .

وهو الدرس المعهود في علاقة القائد بجنوده، وسمته في إدارة الحرب من أولها إلى آخرها، وموقف الشورى هذه المرة، تمخض عن فائدة جديدة، ألا وهي ظهور الكفاءات والعبقريات في الجو الشوري، نعم ، هذه هي سمة البيئة الشورية في المعارك؛ بيئة جاذبة للعقول، تحتضن أصحاب المواهب والأفكار .

ثانيًا : القيادة المتواضعة وفقه الاستئذان

لما أصدر النبي قراره بضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، عَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ – بنفسه – تَرْغِيبًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْأَجْرِ، وتحميسًا لهم ، وتواضعًا منه ﷺ فما فلا يليق بالقائد العظيم أن يجلس في رغد ولهو على الفراش اللين الدافىء من خلف جنوده الذي يتضاغون جوعًا ويرتعدون من البرد شمال المدينة حيث أعمال الحفر ..

وَعَمِلَ الأبطال في أعمال حفر الخندق؛ فَدَأَبَ فِيهِ القائد وَدَأَبُوا . وَأَبْطَأَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَعَنْ الْمُسْلِمِينَ فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ، وَجَعَلُوا يُوَرّونَ بِالضّعِيفِ مِنْ الْعَمَلِ، وَيَتَسَلّلُونَ إلَى أَهْلِيهِمْ – هربًا من أعمال الحفر – بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَلَا إذْنٍ . وَجَعَلَ الرّجُلُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا نَابَتْهُ النّائِبَةُ مِنْ الْحَاجَةِ الّتِي لَا بُدّ لَهُ مِنْهَا ، يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللّحُوقِ بِحَاجَتِهِ فَيَأْذَنُ لَهُ – في رحمة وعفو – فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ

---

١ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠

٢ ابن هشام ٢ / ٢٢٤

رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ١ .

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أُولَئِكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾٢..

وفي هذا دلالة على أهمية الاستئذان إذا ما أراد الجندي الانصراف عن العمل الحربي لضرورة أو لحاجة .. فلا يجوز له – شرعًا أوخُلقًا – أن يتحول عن العمل الجماعي إلى العمل الفردي – أي من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة – إلا بموافقة صريحة من القائد ..

ثالثًا : أهمية الأشعار والأناشيد الحماسية :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ"٣ .

وعن أنس قال :

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ

فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا

عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ٤ .

وكان من بين المجاهدين رجلاً من الْمُسْلِمِينَ يُقَالُ لَهُ جُعَيْلٌ .. فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

١ ابن هشام ٢ / ٢١٥

٢ ابن هشام ٢ / ٢١٦

٣ صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٨٩)

٤ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٥)

obeikandl.com

عَمْرًا ..

فطفق الصحابة يرددون مرارًا :

سَمّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرَا ... وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرَا

فَإِذَا مَرّوا " بِعَمْرٍو " قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " عَمْرًا !"

وَإِذَا مَرّوا " بِظَهْرٍ " قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " ظَهْرًا "١.

وعن الْبَرَاءَ قَالَ

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

[إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا] ٢

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا"٣

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ أَبَيْنَا أَبَيْنَا٤ .

وَكَانَ شِعَارُ الجيش الإسلامي يَوْمَ الْخَنْدَقِ :

" حم ، لَا يُنْصَرُون"٥

وكان الجنود يرددونه من حين لآخر لرفع المعنويات والتحميس وشحذ الهمم.

ومثل هذه المواقف تدلل على قدرة القائد الكبيرة في الجمع بين الجد والترويح عن النفس، لاسيما في شدة الحصار وكربة الحرب.. وإنشاد الأناشيد والأشعار الجهادية في ثنايا المحن دائمًا تحقق عدة فوائد ، أهمها :

(١) الترويح عن الجنود .. في شدة الضنك

---

١ ابن هشام ٢ / ٢١٧

٢ صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ(٣٧٩٥)

٣ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ،(٣٣٦٥)

٤ صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٥)

٥ ابن هشام ٢ / ٢٢٦

obeikandi.com

(٢) إلهاب مشاعر الجنود بشكل إيجابي نحو العقيدة والوطن

(٣) تقوية الصلة بين الجنود وقاداتهم، فضلاً عن الجنود وبعضهم .

رابعًا : الصبر على قلة الزاد :

الصبر على قلة الزاد، من الآداب الهامة التي ينبغي أن يتربى عليها جند الله، ليكون الصبر وقودًا لهم في ساح القتال .. حيث الجوع والمخمصة ..

ولقد ضرب الصحابة أروع المثل في الصبر على قلة الزاد، " فكانوا يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ !!"١

قال جابر- مشيرًا إلى أيام الخندق - :" وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا"٢.

وقال واصفًا حال قائدهمﷺ

"لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا"٣

لقد بلغ منه ﷺ الجوع مبلغًا عظيمًا، يوم الخندق، حتى ربط على بطنه ليقاوم الجوع، قال أبو طلحة: "شكونا إلى رسول اللهﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول اللهﷺ عن حجرين"٤ !

خامسًا : بركات الجهاد :

عندما ينهمك الرجال في العمل الجهادي الخالص، سرعان ما يعايشون كرامات المجاهدين وبركات الجهاد، تلك البركات التي تجعل من القليل كثير، وتجعل من طعام الواحد ما يكفي لمئات ..

قَالَتْ بْنت بَشِيرٍ ابن سعد:

دَعَتْنِي أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ ، فَأَعْطَتْنِي حَفْنَةً مِنْ تَمْرٍ فِي ثَوْبِي ، ثُمّ قَالَتْ أَيْ بُنَيّةُ . اذْهَبِي إلَى أَبِيك وَخَالِك عَبْدِ اللهّ بْنِ رَوَاحَةَ بِغَدَائِهِمَا ، قَالَتْ فَأَخَذْتهَا ، فَانْطَلَقْت بِهَا ، فَمَرَرْتُ بِرَسُولِ اللهّﷺ وَأَنَا أَلْتَمِسُ أَبِي وَخَالِي ، فَقَالَ : "تَعَالَيْ يَا بُنَيّةُ مَا هَذَا مَعَك ؟ "

---

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩١)

٢ صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٢)

٣ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٣)

٤ الترمذي، كتاب الزهد عن رسول اللهﷺ، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ (٢٣٧١)

قالت : يَا رَسُولَ اللهِّ هَذَا تَمْرٌ بَعَثَنِي بِهِ أُمّي إِلَى أَبِي بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ وَخَالِي عَبْدِ اللهِّ بْنِ رَوَاحَةَ يَتَغَدّيَانِهِ. قَالَ:

" هَاتِيهِ"، قَالَتْ :فَصَبَبْته فِي كَفّيْ رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَمَا مَلَأَتْهُمَا ! ثُمّ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ لَهُ، ثُمّ دَحَا بِالتّمْرِ عَلَيْهِ فَتَبَدّدَ فَوْقَ الثّوْبِ، ثُمّ قَالَ لِإِنْسَانٍ عِنْدَهُ: " اُصْرُخْ فِي أَهْلِ الْخَنْدَقِ : أَنْ هَلُمّ إِلَى الْغَدَاءِ !".. فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَلَيْهِ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ! وَجَعَلَ يَزِيدُ١ !حَتّى صَدَرَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَنْهُ وَإِنّهُ لَيَسْقُطُ مِنْ أَطْرَافِ الثّوْبِ !!٢ .

سادسًا: القائد في خدمة جنوده :

قال جابر رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ :

إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: " أَنَا نَازِلٌ" ..

ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ- وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا- فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺالْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ - أَوْ أَهْيَمَ-، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ. فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي :رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺشَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ !فَعِنْدَكِ شَيْءٌ ؟

قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ.

فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهَّ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ : "كَمْ هُوَ ؟".. فَذَكَرْتُ لَهُ .. قَالَ : "كَثِيرٌ طَيِّبٌ " .. قَالَ: " قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ وَلَا الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ" .. فَقَالَ: " قُومُوا".. فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ !! فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ..

قَالَتْ : هَلْ سَأَلَكَ؟

قال :نَعَمْ

فلما أقبل رسول الله ﷺ بأهل الخندق

---

١ وهي معجزة من معجزاته، ومن دلائل نبوته ﷺ

٢ ابن هشام ٢ / ٢١٨

قَالَ : "ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا" ..

[قَالَ جابر: فَجَلَسَ وَأَخْرَجْنَاهَا (يعني الشويهة) إِلَيْهِ . قَالَ فَبَرّك وَسَمّى اللهّ]١

فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ٢ قَالَ : "كُلِي هَـذَا، وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ"..٣.

وفي هذا المشهد المعجز من رسول الله ﷺ، يلفت نظرنا أنه كان في خدمة جنوده في أول المشهد وآخره ..

فكان في خدمتهم لما عَرَضَتْ عليهم كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فقال في تواضع جم :" أنا نازل"، وتحرك بمعوله الكريم صوب الكدية؛ لينسفها، وهو أقوى الرجال – صلوات ربي وسلامه عليه – .

وكان في خدمتهم في آخر المشهد، لما جاء جابر وقد أعد " طعيم" – على حد قوله – لرسول الله ﷺ، فكان من القائد أن أطعم جنوده بنفسه، ووقف يوزع الطعام عليهم بشخصه، حتى إذا ما أكلوا وشبعوا أكل هو.. !

إنها القيادة الرشيدة التي تهوى إليها الأفئدة بمثل هذه المواقف الكريمة، والأخلاق الحميدة، فما كان ليرضى رسول الله-ﷺ – أن يَطعم طعامًا قبل رجاله، وليس من أخلاقه أن يجلس إلى الموائد الشهية الفاخرة خلسة من وراء جنوده، أو أن يتميز عنهم في طعام أو شراب ..

سابعًا : أهمية التبشير بالنصر والفتوحات وقت المحن :

إن من أخلاقيات القيادة الإسلامية في ميادين القتال، التبشير بالنصر والتفاؤل بالظفر، والعمل الإعلامي الجاد المتواصل في بث روح الثقة في الله ومدده ..

ففي مشهد الكدية التي عَرَضَتْ على الرجال، وَقَامَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ،

---

١ ابن هشام ٢ / ٢١٨

٢ وهي معجزة من معجزاته، ومن دلائل نبوته ﷺ

٣ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٢)

ليحطم الصخرة التي أرهقت الجنود، قَالَ :

"تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " ..

فَنَدَرَ ثُلُثُ الْحَجَرِ ! وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ! فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَرْقَةٌ .. ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ :

"تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" ..

فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ!! فَرَآهَا سَلْمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ:

" تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " ..

فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْبَاقِي، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ ..

قَالَ سَلْمَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ مَا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلَّا كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ!!

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

" يَا سَلْمَانُ .. رَأَيْتَ ذَلِكَ ؟؟ "

فَقَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللهِ ..

قَالَ : " فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الْأُولَى رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ" ..

قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ يَا رَسُولَ اللهِ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ... !!

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ –ﷺ– بِذَلِكَ

قال : " ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ"..

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ ...

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ – ﷺ – بِذَلِكَ

" ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الْحَبَشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنْ الْقُرَى حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ"..

قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: " دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ"١.

المطلب الثالث : الحصار

أولاً: بداية الحصار :

لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ مِنْ الْخَنْدَقِ ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتّى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ ، بَيْنَ الْجُرُفِ وَزَغَابَةَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ، منهم بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، حَتّى نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقْمَى ، إلَى جَانِبِ أُحُدٍ٢ .

فلما تقدموا، وكانت مفاجئة الخندق، قَالُوا – في ذهول – : إنّ هَذِهِ مَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْرِفُهَا٣

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إلَى سَلْعٍ ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ٤ . وقد اسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ .. وَأَمَرَ بِالذّرَارِيّ وَالنّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الْآطَامِ٥ .

ثانيًا : حرب الرسائل :

أراد المشركون أن يشنوا حربًا نفسية برسالة توبيخية استفزازية.. فأرسل أبو سفيان كتاباً لرسول الله ﷺ فيه:

باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزى.. وأساف ونائلة وهبل، لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أحد" .

فأرسل له رسول الله ﷺ جوابه فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب، فقد أتاني

---

١ سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب غزوة الترك والحبشة (٣١٢٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي، والصحيحة (٧٧٢)، صحيح الجامع الصغير (٣٣٨٤)

٢ ابن هشام ٢ / ٢١٩

٣ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠

٤ ابن هشام – ٢ / ٢١٩

٥ ابن هشام ٢ / ٢٢٠

كتابك، وقديماً غرك بالله الغرور. أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافاً ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك يا سفيه بني غالب "١.

ثالثًا : تدارك الثغرات ومتابعتها :

وكان الرسول يختلف إلى ثلمة او ثغرةفي الخندق.

تقول عائشة رضي الله عنه: وكان يذهب إلى تلك الثلمة، فإذا أخذه البرد جاء فأدفأته في حضني، فإذا دفيء خرج إلى تلك الثلمة ويقول: ما أخشى أن تؤتي المسلمون إلا منها، فبينما رسول الله ﷺ في حضني صار يقول : "ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة"، فسمع صوت السلاح، فقال رسول الله ﷺ:" من هذا؟". فقال سعد بن أبي وقاص: "سعد، يا رسول الله أتيتك أحرسك !".

فقال:" عليك هذه الثلمة فاحرسها" ..

ونام رسول الله ﷺ حتى غط، وقام في قبته يصلي لأنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة"٢

ثم خرج من قبته، فقال: "هذه خيل المشركين تطيف بالخندق" .. ثم نادى :" يا عباد بن بشر" ..

قال: لبيك

قال : "هل معك أحد ؟ "

قال: نعم أنا في نفر حول قبتك يا رسول الله .

وكان ألزم الناس لقبة رسول الله -ﷺ يحرسها- فبعثه يطيف بالخندق، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف بهم٣..

ولما استأخر المشركون الفتح، تَيَمَّمُوا مَكَانًا ضَيِّقًا مِنْ الْخَنْدَقِ ، فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ مِنْهُ فَجَالَتْ بِهِمْ فِي السَّبْخَةِ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلْعٍ ، وَخَرَجَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي نَفَرٍ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَخَذُوا عَلَيْهِمْ الثَّغْرَةَ الَّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا

١ الحلبي ٢/ ٦٢٨
٢ الحلبي ٢/ ٦٢٨
٣ الحلبي ٢/ ٦٢٨

خَيْلَهُمْ ، فسدوا هذه الثغرة١ ..

رابعًا : مبارزة علي بن أبي طالب عمرو بن ود ودرس في أخلاق المقاتل :

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدّ قَدْ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ فَلَمْ يَشْهَدْ يَوْمَ أُحُدٍ ؛ فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ خَرَجَ مُعْلِمًا لِيُرِيَ مَكَانَهُ فَلَمّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ قَالَ:

مَنْ يُبَارِزُ ؟ ..

فَبَرَزَ لَهُ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ يَا عَمْرُو: إنّك قَدْ كُنْت عَاهَدْت اللهّ أَلّا يَدْعُوك رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إلَى إحْدَى خَلّتَيْنِ إلّا أَخَذْتهَا مِنْهُ .

قَالَ لَهُ: أَجَلْ ..

قَالَ لَهُ عَلِيّ : فَإِنّي أَدْعُوك إلَى اللهّ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ.

قَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ.

قَالَ : فَإِنّي أَدْعُوك إلَى النّزَالِ.

فَقَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي ؟ فَوَاَللهّ مَا أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك .

قَالَ لَهُ عَلِيّ : لَكِنّي وَاَللهّ أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك !!

فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيّ فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا ، فَقَتَلَهُ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتّى اقْتَحَمَتْ مِنْ الْخَنْدَقِ هَارِبَةً٢ .

وذكر ابن إسحاق أن المشركين بعثوا إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال رسول الله ﷺ:

"هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى"٣.

ولما أقبل علي – رضي الله عنه – بعد قتله لعمرو بن عبد ود على رسول الله ﷺ وهو متهلل، قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلا سلبته درعه، فإنه ليس في العرب درع

---

١ ابن هشام ٢ / ٢٢٤

٢ ابن هشام ٢ / ٢٢٤

٣ الحلبي ٢/ ٦٢٨

obeikandi.com

خير منها؟ قال: إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه ١.

وثمة عدة دروس نستخلصها من موقف مقتل عمرو بن ود أحد طغاة العرب في الجاهلية، ومن هذه الدروس :

– أن المقاتل المسلم هو داعية إلى الحق قبل أي اعتبار حربي، فقد بدأ بالحوار الدعوي مع خصمه الذي تحدى المسلمين بالمبارزة، وعرض عليه المقاتل المسلم أن يدخل في الإسلام قائلاً : " فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى اللهّ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ" .. وهو أمر يؤكد على أن القتال في الإسلام ليس عبارة عن قتال من أجل السلب أو النهب إنما القتال في الإسلام يتسم برسالته الدعوية التي تعلي من قدر العقيدة والأخلاق على أي مصلحة عسكرية ..

– وفي قول المقاتل المسلم لطاغية العرب : " فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى النِّزَالِ"، دلالة على ماي نبغي أن يتصف به المقاتل المسلم من الشجاعة والرغبة والاستعداد في منزالة الطغاة في ساح الحروب لتخليص البشرية منهم !

–أن حسن الأخلاق الحربية واحترام آدمية الأعداء لهي من أبرز صفات المقاتل المسلم الناجح، فنرى أن عليًا لما قتل عمرو بن ود وانكشفت عورته، قال علي بن أبي طالب – معللاً سبب عدم أخذ سلب عمرو – "إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه" .. صور رائعة في احترام حقوق الإنسان المحارب، وفي سمو أخلاق الجنود الإسلاميين في ميادين القتال .

خامسًا : لا نأكل ثمن الموتى !

ولما حاول نوفل بن عبد الله – لعنه الله – اقتحام الخندق الذي صنعه المسلمون لتحصين المدينة من حصار التحالف الوثني – في غزو الأحزاب – ومات مقتولاً في الخندق، عندما أصر على اقتحامه في فرقة من المشركين، سأل المشركون المسلمين جثته بمال يعطونه المسلمين، فأرسل المشركون إلى النبي: أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً٢.. فتعفف رسول الله عن هذا المال الخبيث، ونهاهم عن ذلك وكرهه !! وقال: " ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُمْ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الْجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ"٣

---

١ ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٥، السهيلي ٤/ ٣٧٩، الحلبي ٢/ ٦٢٨

٢ الحلبي ٢/ ٦٢٨

٣ مسند أحمد (٢٢٣٠)، (٢٤٤٢)، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٥

وفي رواية قال: " ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته"١. فلم يقبل منهم شيئًا، وخلى بينهم وبينه ..

وفي رواية : عن عن عكرمة أن نوفلاً تردى به فرسه يوم الخندق فقُتل فبعث أبو سفيان إلى النبي ﷺ بديته مائة من الإبل فأبى النبي ﷺوقال : "خذوه فإنه خبيث الدية خبيث الجثة"٢ ..

وفي رواية قال ﷺ : " هو لكم ، لا نأكل ثمن الموتى "٣

وإنما كره هذا لئلا ينسب إلى المسلمين ما لا يليق بمكارم الأخلاق، فقد كان عليه السلام يقول: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق٤.

وبهذا الموقف يكون لرسول الله ﷺ السبق في تحريم أكل ثمن الجثث، وهو بذلك يظهر لأعدائه الجانب الأخلاقي الإسلامي في الحروب..

سادسًا : القتل الخطأ الذي لا دية فيه :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ قَالَ :

خَرَجَتْ طَلِيعَتَانِ لِرَسُولِ اللهَّ ﷺ مِنْ الْخَنْدَقِ لَيْلًا فَالْتَقَتَا تَحْتَ اللَّيْلِ وَلَا يَشْعُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ الْعَدُوُّ .فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ جِرَاحَاتٌ وَقَتْلَى .ثُمَّ تَنَادَوْا بِشِعَارِ الْإِسْلَامِ فَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ .

فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهَّ ﷺ فَقَالَ :

"جِرَاحَاتُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهَّ .. وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَهُوَ شَهِيدٌ " ٥.

ولذلك يقول العلماء : إذَا الْتَقَتْ السَّرِيَّتَانِ لَيْلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ تَرَى أَنَّ صَاحِبَتَهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَاقْتَتَلُوا فَأَجْلَوْا عَنْ قَتْلَى ثُمَّ عَلِمُوا ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِمْ مِنْ دِيَةٍ وَلَا كَفَّارَةٍ .لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ السَّرِيَّتَيْنِ بَاشَرَتْ دَفْعًا مُبَاحًا ، فَقَدْ قَصَدَتْ كُلُّ سَرِيَّةٍ إلَى الْأُخْرَى ، وَإِنَّمَا قَتَلَتْهَا الْأُخْرَى دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ .وَذَلِكَ دَفْعٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا فَلَا يَكُونُ

---

١ الحلبي ٢/ ٦٢٨

٢ ابن أبي شيبة (٣٦٨٢٤) ، المتقي الهندي : كنز العمال (٣٠١٠٢)

٣ البيهقي : دلائل النبوة (١٣٢٠)

٤ السرخسي : شرح كتاب السير الكبير١ / ٤٤٨

٥ السرخسي: شرح السير الكبير ١ / ١١٤

مُوجِبًا دِيَةً وَلَا كَفَّارَةً١.

سابعًا : أهمية اللجوء إلى الله لفك الحصار:

فقد دَعَا رَسُولُ اللهِّ ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ :

"اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ! اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ"٢.

وكان يدعوا قائلاً: "اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا"٣.

وكان يقول: "اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك"٤.

واللجوء إلى الله لفك الحصار هو في الأساس من ديدن جند الله، فهم يجلبون نصر الله بالقيام والتضرع إلى الله، ويدفعون خزيه بذلك كذلك .

ثامنًا : أهمية الصلاة وقت الحرب :

فعَنْ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ:" مَلَأَ اللهُّ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ"٥.

وقد جعل عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ- يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِّ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "وَاللهِّ مَا صَلَّيْتُهَا !!"

قال جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ: فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ٦.

المطلب الرابع : قريظة تخون الدولة الإسلامية

أولاً : حركة حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ :

خَرَجَ عَدُوّ اللهّ حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ النّضْرِيّ ، حَتّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ الْقُرَظِيّ، زعيم بني قريظة، وصَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ مع الدولة الإسلامية .. فَلَمّا سَمِعَ كَعْبٌ بِحُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ أَغْلَقَ دُونَهُ بَابَ حِصْنِهِ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ فَنَادَاهُ حُيَيّ :

---

١ السرخسي: شرح السير الكبير ١ / ١١٤

٢ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٦)

٣ مسند أحمد (١٠٥٧٣)

٤ الحلبي ٢/ ٦٢٨

٥ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٢)

٦ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٣)

وَيْحَك يَا كَعْبُ افْتَحْ لِي !!

قَالَ : وَيْحك يَا حُيَيّ ! إنّك امْرُؤٌ مَشْئُومٌ، وَإِنّي قَدْ عَاهَدْت مُحَمّدًا ، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إلّا وَفَاءً وَصِدْقًا !

قَالَ : وَيْحَك افْتَحْ لِي أُكَلّمْك ..

قَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

قَالَ : وَاَللهّ إنْ أَغْلَقْت دُونِي إلّا عَنْ جَشِيشَتِك .. وَيْحَك يَا كَعْبُ جِئْتُك بِعِزّ الدّهْرِ، وَبِبَحْرٍ طَامّ، جِئْتُك بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا ، حَتّى أَنْزَلْتهمْ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ، وَبِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتّى أَنْزَلْتُهُمْ بِذَنَبِ نَقْمَى إلَى جَانِبِ أُحُدٍ ، قَدْ عَاهَدُونِي وَعَاقَدُونِي عَلَى أَنْ لَا يَبْرَحُوا حَتّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمّدًا وَمَنْ مَعَهُ .

فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ : جِئْتنِي وَاَللهّ بِذُلّ الدّهْرِ وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ فَهُوَ يَرْعَدُ وَيَبْرُقُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ ! وَيْحَك يَا حُيَيّ ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمّدٍ إلّا صِدْقًا وَوَفَاءً .

فَلَمْ يَزَلْ حُيَيّ بِكَعْبٍ يَفْتِلُهُ فِي الذّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتّى سَمَحَ لَهُ عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا وَمِيثَاقًا : لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ ، وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمّدًا أَنْ أَدْخُلَ مَعَك فِي حِصْنِك حَتّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَك . فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ وَبَرِئَ مِمّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهّ ﷺ[1] .

ثانيًا : أخلاقيات الدبلوماسية الإسلامية وقت الأزمات :

لَمّا انْتَهَى إلَى رَسُولِ اللهّ – ﷺ – خبر نقض العهد من قريظة، الْخَبَرُ بَعَثَ رَسُولُ اللهّ – ﷺ –وفدًا دبلوماسيًا إلى ديار بني قريظة لتحري الخبر، ولتجديد العهد، ولتحذيرهم من مغبة نقض العهد أوالتعاون مع العدو المحتل، وكان على رأس هذا الوفد المبارك القيادات الإسلامية الآتية :

١ –سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، سَيّدُ الْأَوْسِ .

٢ –سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، سَيّدُ الْخَزْرَجِ

٣– عَبْدُ اللهّ بْنُ رَوَاحَةَ، الشاعر الإسلامي المعروف

٤ –خَوّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ ،من بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ .

فَقَالَ لهم رسول الله : " انْطَلِقُوا حَتّى تَنْظُرُوا ، أَحَقّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟

---

١ ابن هشام ٢ / ٢٢٠

فَإِنْ كَانَ حَقّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتّوا فِي أَعْضَادِ النّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنّاسِ "١ .

فَخَرَجُوا حَتّى أَتَوْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، ورفع الوفد الإسلامي إلى القائد العامﷺ التقرير التالي :

١-نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهّ ﷺ، فسبوه علنًا أمام عناصر الوفد الإسلامي..

٢-نقضوا العهد، بل وأنكروه، وَقَالُوا : مَنْ رَسُولُ اللهّ ؟ لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمّدٍ وَلَا عَقْدَ .

فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَشَاتَمُوهُ وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدّةٌ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : دَعْ عَنْك مُشَاتَمَتَهُمْ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنْ الْمُشَاتَمَةِ .

ثُمّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا ، إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ فَسَلّمُوا عَلَيْهِ ثُمّ قَالُوا : عَضَلٌ وَالْقَارّةُ ؛ أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارّةِ بِأَصْحَابِ الرّجِيعِ ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ :

"اللهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ "!!!٢..

ثالثًا : أهمية الجوائز والناشين :

وطفق الرسول يتابع أخبار بني قريظة من حين إلى آخر بعدما نقضوا العهد، فلا يأمن أن ينقضوا على ضعفاء المسلمين أو أن يعملوا النهب والسلب في المدينة، من خلف المسلمين، وقد عهدهم أهل غدر وخيانة .

فأرسل الزبير يخبره بخبرهم .

وقد قَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ : "مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ "، يقصد قريظة ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ثُمَّ قَالَ : "مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ ".. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا.. ثُمَّ قَالَ : " مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ " .. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ..

ثُمَّ قَالَ:" إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ"٣ .

وعَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ

---

١ ابن هشام ٢ / ٢٢١

٢ ابن هشام ٢ / ٢٢١

٣ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٤)

obeikandl.com

كُنْتُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ.. قَالَ : أَوَهَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ . قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ :

"مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ؟؟ "

فَانْطَلَقْتُ فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: "فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي "١ !

رابعًا :خطورة انتشار الخوف والنفاق:

هكذا استقبل القائد خبر الخيانة والمحنة بالثبات والمحنة، ليكون قدوة وأسوة في رفع الهمم وتقوية روح المؤمنين ..

لكن سرعان ما انتشر الخبر ..

وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءُ، وَاشْتَدّ الْخَوْفُ، وَأَتَاهُمْ عَدُوّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ – حيث جيوش التحالف–، وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ – حيث اليهود الذين خانوا – حَتّى ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ كُلّ ظَنّ، وَنَجَمَ النّفَاقُ مِنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، حَتّى قَالَ أحدهم: كَانَ مُحَمّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَائِطِ٢ .

وَحَتّى قَالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ المنافق : يَا رَسُولَ اللهّ إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ مِنْ الْعَدُوّ – وَذَلِكَ عَنْ مَلَإٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ– فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنَرْجِعَ إلَى دَارِنَا ، فَإِنّهَا خَارِجٌ مِنْ الْمَدِينَةِ ، وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارًا ٣.

ويتكفل القرآن الكريم بتصوير حال الدولة الإسلامية من خصومها بكل دقة، فيقول الله تعالى :

﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِّ الظُّنُونَا{١٠} هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً{١١} وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُّ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً{١٢} وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً{١٣} وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا

---

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٤٤٢)

٢ ابن هشام – ٢ / ٢٢٢

٣ ابن هشام – ٢ / ٢٢٢

ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً{١٤} وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَّ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهَّ مَسْؤُولاً{١٥} قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً{١٦} قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهَّ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهَّ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{١٧} قَدْ يَعْلَمُ اللهُّ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً{١٨} أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُّ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيراً{١٩} يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً{٢٠}﴾[الأحزاب: ١٠ ٢٠].

خامسًا : محاولة النبي تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان :

فَلَمّا اشْتَدّ عَلَى الدولة الحصار والْبَلَاءُ بَعَثَ رَسُولُ اللهّ ﷺإِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ ، وَإِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ ، فتفاوض معهما على على عودة غطفان إلى ديارها وترك حصار المدينة والتخذيل بين جيوش التحالف، مقابل ان يمنحه رسول الله ف ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصّلْحُ، وأحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلح١، وَلَمْ تَقَعْ الشّهَادَةُ وَلَا عَزِيمَةُ الصّلْحِ، إلّا الْمُرَاوَضَةُ فِي ذَلِكَ . فَلَمّا أَرَادَ رَسُولُ اللهّ ﷺأَنْ يَفْعَلَ بَعَثَ إلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا ، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ٢..

فَقَالَا لَهُ: يَا رَسُولَ اللهّ .. أَمْرًا نُحِبّهُ فَنَصْنَعُهُ ؟ أَمْ شَيْئًا أَمَرَك اللهُّ بِهِ لَا بُدّ لَنَا مِنْ الْعَمَلِ بِهِ؟ أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا ؟

قَالَ : "بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ ، وَاَللهّ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إلّا لِأَنّنِي رَأَيْت الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلّ جَانِبٍ، فَأَرَدْت أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إلَى أَمْرٍ مَا"..

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : يَا رَسُولَ اللهّ ، قَدْ كُنّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشّرْكِ بِاَللهّ

---

١ الحلبي ٢/ ٦٢٨

٢ ابن هشام ٢ / ٢٢٣

وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلّا قِرًى أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمْنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزّنَا بِك وَبِهِ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ؟ ! وَاللهِ، مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلّا السّيْفَ، حَتّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ !!

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" فَأَنْتَ وَذَاكَ " .

فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الوثيقة فَمَحَا مَا فِيهَا مِنْ الْكِتَابِ، ثُمّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا١ .

المطلب الخامس:"الحرب خدعة"٢

أولاً : حركة (نُعَيْمٍ) فِي تفريق جيش التحالف:

في ظل هذه الظروف الشديدة القاسية، يأتي الرزق والنصر من حيث لا يحتسب المتقون ..

فقد أسلم نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودِ أحد زعماء غَطَفَانَ !!

كانوا بالأمس يفاوضهم رسول الله على الرجوع إلى ديارهم فيرفضون إلا الرجوع بنصف ثمار المدنية .. !

والآن ساقهم الله إلى القائد الإسلامي من غير عناء ولا تفاوض ولا كلفة ..

فأَتَى نُعَيْم رَسُولَ اللهِّ- ﷺ – فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللهِّ إِنّي قَدْ أَسْلَمْت ، وَإِنّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتّ!

فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ :

"إِنّمَا أَنْت فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذّلْ عَنّا إِنْ اسْتَطَعْت ، فَإِنّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ " .

فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيّةِ فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدّي إِيّاكُمْ وَخَاصّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنكُمْ ..

قَالُوا : صَدَقْت ، لَسْت عِنْدَنَا بِمُتّهَمٍ .

فَقَالَ لَهُمْ: إِنّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَإِنّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ فَإِنْ

---

١ ابن هشام ٢ / ٢٢٣

٢ صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة(٢٨٠٥)

رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلّوْا بَيْنكُمْ وبين محمد.. فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمّدًا حَتّى تُنَاجِزُوهُ.

. فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ . .

ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى قُرَيْشًا ، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ : قَدْ عَرَفْتُمْ وُدّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمّدًا ، وَإِنّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْت عَلَيّ حَقّا أَنْ أُبْلِغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنّي ..

فَقَالُوا : نَفْعَلُ .

قَالَ تَعْلَمُوا أَنّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إلَيْهِ إنّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا ، ، فَهَلْ يُرْضِيك أَنْ نَأْخُذَ لَك مِنْ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ثُمّ نَكُونُ مَعَك عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتّى نَسْتَأْصِلَهُمْ ؟ فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ . فَإِنْ بَعَثَتْ إلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا.

ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى غَطَفَانَ ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ ، إنّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي ، وَأَحَبّ النّاسِ إلَيّ وَلَا أَرَاكُمْ تَتّهِمُونِي ..

قَالُوا : صَدَقْت ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتّهَمٍ .

قَالَ : فَاكْتُمُوا عَنّي ؛ قَالُوا : نَفْعَلُ فَمَا أَمْرُك ؟

ثُمّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذّرَهُمْ مَا حَذّرَهُمْ[1] .

فانخذلت جيوش التحالف، ودبت الفرقة والشكوك بينهم ..

فضعفت جيوش التحالف ..

وبعث الله الريح والملائكة عليهم فزاد ضعفهم، وزادت رغبتهم في الرحيل ..

وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهَّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الأحزاب : ٩].

---

١ ابن هشام ٢ / ٢٢٨

ثانيًا : تحرّي انصراف الأحزاب :

فَلَمّا انْتَهَى إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ مَا اخْتَلَفَ مِنْ أَمْرِهِمْ ،وَمَا فَـرّقَ اللهُ مِـنْ جَمَـاعَتِهِمْ دَعَـا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، فَبَعَثَهُ إلَيْهِمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ لَيْلًا . فما قام أحد!!

قَالَ حُذَيْفَةُ : وَاَللهّ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهّ ﷺبِالْخَنْدَقِ وَصَلّى رَسُولُ اللهّ ﷺهُوِيّا مِنْ اللّيْلِ ثُمّ الْتَفَتَ إلَيْنَا فَقَالَ : "مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُـمّ يَرْجِـعُ، أَسْـأَلُ اللهّ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنّةِ ؟" .. فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ ، مِنْ شِدّةِ الْخَوْفِ وَشِدّةِ الْجُوعِ وَشِدّةِ الْبَرْدِ ..!

فَلَمّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ ، دَعَانِي رَسُولُ اللهّ ﷺفَلَمْ يَكُنْ لِي بُدّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي ؛ فَقَالَ: "يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَـوْمِ ، فَـانْظُرْ مَـاذَا يَـصْنَعُونَ وَلَا تُحْـدِثَنّ شَـيْئًا حَتّـى تَأْتِيَنَا." .

قَالَ : فَذَهَبْت فَدَخَلْت فِي الْقَوْمِ وَالرّيحُ وَجُنُودُ اللهّ تَفْعَلُ بِهِـمْ مَـا تَفْعَـلُ لَا تُقِـرّ لَهُـمْ قِدْرًا وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً . فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ : لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَـنْ جَلِيـسُهُ ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ فَأَخَذْت بِيَدِ الرّجُلِ الّذِي كَانَ إلَى جَنْبِي ، فَقُلْت : مَنْ أَنْتَ ؟ قَـالَ : فُـلَانُ بْـنُ فُلَانٍ!

ثُمّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنّكُمْ وَاَللهّ مَـا أَصْـبَحْتُمْ بِـدَارِ مُقَـامٍ لَقَـدْ هَلَـكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفّ ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمْ الّذِي نَكْرَهُ وَلَقِينَا مِنْ شِـدّةِ الـرّيحِ مَـا تَرَوْنَ مَا تَطْمَئِنّ لَنَا قِدْرٌ وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَـإِنّي مُرْتَحِـلٌ، ثُـمّ قَامَ إلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلَاثٍ، فَوَاَللهّ مَا أَطْلَقَ عِقَالَـهُ إلّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهّ ﷺإلَيّ " أَنْ لَا تُحْدِثَ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنِي " لَقَتَلْته بِسَهْمِ .

ورَجَعْتُ إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَاجِلُ . فَلَـمّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إلَى رِجْلَيْهِ وَطَرَحَ عَلَيّ طَرَفَ الْمِرْطِ ثُمّ رَكَعَ وَسَـجَدَ وَإِنّي لِفِيـهِ فَلَـمّا سَـلّمَ أَخْبَرْتـه الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ ، فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إلَى بِلَادِهِمْ١ .

ثالثًا : إعلان بداية الحرب الاستباقية :

فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ

---

١ ابن هشام ٢ / ٢٣٢، ٢٣٢،٢٣٣ ، مسند أحمد (٢٣٣٨٢)

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حينَ أَجْلَى الْأَحْزَابَ عَنْهُ- : " الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِم"١ .

المطلب السادس : شكر الله على جلاء الاحتلال والحصار:

لما أكثر القائد العام ﷺمن الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله .. أتاه جبريل عليه السلام فبشره أن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم رسول الله ﷺأصحابه بذلك وصار يرفع يديه قائلاً :

" شكراً ! شكراً !!"٢.

فلما أكرم الله المسلمين بجلاء الأحزاب، أخذ رسول الله يردد مرارًا :

" لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ"٣.

المطلب السابع : عناية القائد بالجرحى والمصابين :

فقد أشرف النَّبِيَّ ﷺ بنفسه على متابعة الحالة الصحية، لجرحى المعركة، فكَوَى سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بِمِشْقَصٍ حِينَ رُمِيَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَقُطِعَ أَكْحَلُهُ٤ .

ودَعَا سعد وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْت أَبْقَيْت مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لِذَلِكَ ، فَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ قِتَالِ قَوْمٍ أَخْرَجُوا رَسُولَك مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ تُبْقِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَاجْعَلْ هَذَا سَبَبَ شَهَادَتِي ، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي فِي بَنِي قُرَيْظَةَ .

فَلَمَّا دَعَا بِذَلِكَ رَقَأَ الدَّمُ .

وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِهَذَا الدُّعَاءِ ؛ للخيانة التي بدرت منهم في أحلك الظروف والحصار.. ونقضهم العهد، وعمالتهم الصريحة للمحتل الغاصب٥ ..

وَرُوِيَ أَنَّ النبي ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ٦ .

---

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠١)

٢ الحلبي ٢/ ٦٢٨

٣ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٥)

٤ السرخسي: شرح السير الكبير١ / ١٣٨

٥ السرخسي : شرح السير الكبير ٢ / ١٧١

٦ السرخسي :شرح السير الكبير ١ / ١٣٨

المبحث الثالث
محاكمة بني قينقاع وإنزال العقاب بهم

الأربعاء ٧ من ذي القعدة ٥ هـ١

المطلب الأول : نزول جبريل في شأن قريظة :

لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاحَ وَاغْتَسَلَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ ؟ ! وَاللهِّ مَا وَضَعْنَاهُ !فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ! قَالَ: " فَإِلَى أَيْنَ ؟" قَالَ: هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ٢ .

وقال: إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم. فدعا رسول الله ﷺ عليًا- رضي الله عنه فدفع إليه لواءه وبعث بلالاً فنادى في الناس٣ ..

فقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- لهم - :

"لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ " .. فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ٤ .

المطلب الثاني : تحرك الجيش الإسلامي إلى قريظة :

قال أَنَسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ :

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ مَوْكِبَ جِبْرِيلَ -صَلَوَاتُ اللهِّ عَلَيْهِ - حِينَ سَارَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ"٥ .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم و سار إليهم في المسلمين وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسًا، فحاصرهم خمسة عشر يومًا أشد الحصار، ورموا بالنبل فانجحروا فلم يطلع منهم أحد، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول

---

١ ابن سعد ٢ / ٧٤

٢ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٣٨٠٨)

٣ ابن سعد ٢ / ٧٤

٤ صحيح البخاري ، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء (٨٩٤)

٥ صحيح البخاري ، ، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٣٨٠٨) (٣٨٠٩)

obeikandl.com

الله- ﷺ-: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر. فأرسله إليهم فشاوروه في أمرهم فأشار إليهم بيده أنه الذبح ثم ندم فاسترجع وقال: خنت الله ورسوله! فانصرف فارتبط في المسجد ولم يأت رسول اللهﷺ حتى أنزل الله توبته، ثم نزلوا على حكم رسول الله١. فوكل أمرهم إلى سعد بن معاذ حليفهم . وارتضت قريظة به حكما ..

المطلب الثالث : توقير القيادات الإسلامية :

لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ".. فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ : "إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ "٢ ..

المطلب الرابع : الإعدام جزاء الخيانة العظمى :

قَالَ سعد: " فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ " .

قَالَ:" لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ"٣ .

قال عطية القرظي :عرضنا على رسول الله ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قُتل ومن لم ينبت خلي سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي٤.

المطلب الخامس : عدم جواز قتل نساء العدو إلا من حاربت :

عن عائشة قالت :لم يقتل من نسائهم تعني بني قريظة إلا امرأة إنها لعندي تحدث تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺيقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ، قالت : أنا قلت وما شأنك؟ قالت : حدث أحدثته .. قالت : فانطلق بها فضربت عنقها فما أنسى عجبًا منها أنها تضحك ظهرا وبطنا وقد علمت أنها تقتل٥ .

المطلب السادس :تحليل مهم حول القتل الجماعي لبني قريظة :

معروف لدى كتب التاريخ أن يهود قريظة كانوا فصيل من فصائل المدينة المنورة.

---

١ ابن سعد ٢ / ٧٤

٢ صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨١٦)

٣ صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨١٦)

٤ سنن ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من لا يجب عليه الحد (٢٥٤١) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة والمشكاة (٣٩٧٤)

٥ سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٧١)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود

ومعروف أنه بمجرد قدوم النبي ﷺ المدينة عقد بينه وبين اليهود الموجودين بها معاهدة تنظم الشأن العام الداخلي والخارجي للمدينة. وكان من بنود هذه المعاهدة:

١- التزام كل أبناء المدينة بما فيهم المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر .

٢- الدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي على المدينة .

وحدث في في العام الخامس الهجري .. أن مر المسلمون بظروف قاسية عندما تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش التحالف المشركة بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل، من مشركي قريش وأشجع وغطفان وبني سليم وأسد وفزارة .. على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل، وكان المتوقع أن ينضم يهود بني قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات المحتلة لحدود المدينة، بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين.. لكن الذي حدث هو عكس هذا، فقد فوجئ المسلمون ببني قريظة يخونهم في أخطر أوقات محنتهم، ولم يرعوا للجوار حقاً، ولا للعهود حرمة، بل كانوا يسعون من وراء انضمامهم هذا إلى صفوف القوات الغازية التعجيل بالقضاء على المسلمين ودولتهم الناشئة !

لقد أحدثت هذه الخيانة زلزالاً عنيفًا في نفوس المسلمين، وجرحًا عميقًا في وجدانهم، لا سيما بعد إعلان قريظة – جهارًا نهارًا - الانضمام إلى صفوف الغزاة .. لدرجة أن الرسول ﷺ حرص أول الأمر على كتمان الخبر على الشعب لما كان يخشى من وقعه على نفوس الجنود. وبمجرد أن انتهى إلى سمعه ﷺ النبأ أرسل وفداً دبلوماسيًا مكوناً من القادة الأفاضل سعد بن معاذ(قائد الأوس)، وسعد بن عبادة (قائد الخزرج)، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير- رضوان الله تعالى عليهم - ليذّكروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عقود وعهود، ويحذروهم مغبة ما هم مقدمون عليه، ولكن دون جدوى!

وبعد أن ولى المشركون المحتلون وحلفاؤهم الأدبار، يحملون معهم الهزيمة والإخفاق، وفشلت محاولاتهم لاقتحام المدينة المنيعة . رجع المقاتلون المسلمون إلى بيوتهم بالمدينة يستريحون من هذه الغمة، ويلتقطون أنفاسهم بعد فزع وقلق نفسي مريع دام شهرًا كاملاً.

ويبدو أن بعض الصحابة ظن أن الموضوع انتهى إلى ذلك الحد ! لكن أيترك الخائنون العملاء الناكثون للعهود دون محاسبة ؟ فنادى النبي ﷺ في المسلمين "ألا .. لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة !"١، فسار الجيش الإسلامي إلى فصيل الفتنة والخيانة، وتبعهم النبي ﷺ – القائد العام – بعد أن استخلف على المدينة – نائبًا عنه –عبد الله بن أم مكتوم، وحاصر المسلمون بني قريظة شهراً تقريبًا، ولما طال عليهم الحصار.. ورفض النبي ﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، واستسلم بنو قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فوكل ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ– قائد الأوس – .. وفي اختيار سعد دلالة على حكمة النبي ﷺ وبُعد نظره، وإدراكه لنفسيات يهود قريظة ، لأن سعدًا كان حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحابيهم في حكمه، لكن سعداً نظر إلى الموقف من جميع جوانبه. وقدره تقدير من عاش أحداثه وظروفه.

وبعد أن أخذ سعد ﷺ المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه. أعلن حكمه بالإعدام على الخونة، قائلاً: "فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُسْبَى الذِّرِّيَّةُ وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ "، فقال رسول الله ﷺمؤيدًا هذا الحكم : " لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِّ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ "٢ ..

فسيقوا إلى خنادق في المدينة، فُقتل رجالهم وُسبي نساؤهم وذراريهم. ولاقى بنو قريظة هذا المصير على هذه الخيانة.

وهنا يحلو للبعض أن يتطاولوا على تصرف النبي ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبروا أن الإعدام الجماعي الذي تم لهؤلاء الناس يتسم بالقسوة والوحشية والإجرام... الخ ..

ونرد على مثل هذه الآراء ونقول :

أولاً: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبمًا كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم؟ ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين. على أن اليهود لم يقدِموا على هذا العمل الخسيس إلا بعد أن تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم– بمساعدة المشركين– سوف

---

١ انظر: ابن سيد الناس ٢\٥٠

٢ ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ١١٧، و ابن سيد الناس ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢/ ٢٤٠

يقومون بتدمير الكيان الإسلامي تدميراً كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كلياً – كما ورد في كتبهم إذا ظهروا على شعب من الشعوب – ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة البشعة١.

لقد جاء في سفر التثنية : "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك وفتحت لك؛ فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك.. بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك "٢ .

ويعلق "مولانا محمد علي"، على هذا النص بقوله: "وهكذا حكم سعد وفقًا للشريعة الموسوية بقتل ذكور بني قريظة وبسبي نسائهم وأطفالهم وبمصادرة ممتلكاتهم.. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على درجة الضبط للعقوبة التي كان اليهود ينزلونها- تبعاً لتشريع كتابهم- بالمغلوبين من أعدائهم، فأي اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو في الواقع انتقاد لا شعوري للشريعة الموسوية، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف- في وضوح بالغ- أي قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس"٣.

ثانياً: أن اليهود – لا سيما يهود قريظة – لم يلقوا من المسلمين طيلة السنوات التي تلت المعاهدة إلا كل بر ووفاء، ومعاملة حسنة طيبة، كما شهدوا أنفسهم بذلك، فعندما ذهب حيي بن أخطب – أكبر زعماء اليهود – إلى كعب بن أسد القرظي زعيم قريظة يغريه بنقض العهد مع النبي ﷺ قال: " وَيْحَك يَا حُيَيّ !! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمّدٍ إلّا صِدْقًا وَوَفَاءً" ٤.. لكنه لم يزل به حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد.

ثالثًا : أن قانون أي دولة الآن يحكم بالإعدام على من يخون وطنه ويقيم اتصالات مع العدو أو يتجسس لحسابه، و لو درس الذين يطعنون في حكم سعد على بني قريظة

---

١ انظر: جمعة علي الخولي: معاملة الرسول ﷺ لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧،

٢ سفر التثنية – الإصحاح العشرون ١٠: ١٨.

٣ مولانا محمد علي : حياة محمد ورسالته ص ١٧٥

٤ السهيلي ٣/ ٤٢٢، ابن سيد الناس ١٢\ ٣٨، وابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ١٠٣

القوانين المعاصرة دراسة نافذة وطبقوها على قضية بني قريظة لرأوا أن قوانين العصر الحديث والدول المتقدمة لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ١..

فيهود قريظة خانوا العقد، وتآمروا وانضموا إلى أعداء الدولة الإسلامية وأوقعوا المسلمين بين شقي الرحى في المدينة مكتوين بنار المشركين من جهة واعتداء اليهود في ساعة المحنة من جهة ثانية فاقترفوا بذلك الغدر أربع جرائم:

أ - رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي المحتل.

ب - تسهيل دخول العدو للبلاد .

ج - التجسس لصالح تحالف المشركين.

د- دس الفتن والمشاركة في الحرب الإعلامية النفسية على الشعب المسلم.

إذا هو (القصاص العادل)٢ الذي أصاب بني قريظة على خيانتهم ..

ومعظم قوانين العقوبات العصرية تجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الأربع، وتسمى أي جريمة من هذه الجرائم باسم الخيانة العظمى!

رابعًا : قد يقال: كان من الممكن أن يعامل النبي ﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش عدوه الذي انهزم أمامه واستسلم، أو يعاملهم كما عامل يهود بني النضير وبني قينقاع.. والجواب على ذلك أن بني قريظة لم يكونوا أسرى حرب حتى يميل بهم إلى الشفقة، ولم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، وإنما كانوا جيرانا متحالفين يشكلون مع المسلمين وحدة وطنية ملزمة بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي عدوان، لكنهم ظهروا أخطر من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم ويخصونهم بحقوق الجار، وواجبات الذمام، فكانوا بمثابة الخائن المتآمر المتواطئ مع العدو على أمته ووطنه في حالة الحرب القائمة وهذه خيانة عظمى ليس لها في جميع الشرائع إلا الإعدام السريع.. وموقفهم هنا يختلف اختلافًا واضحًا عن موقف بني قينقاع وبني النضير، فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم وأشاعوا الرعب والشكوك ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحًا لا يفل.. وبنوا النضير ائتمروا على قتل الرسول ﷺ، وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقًا يصلون منه إلى التنفيذ، وهؤلاء وأولئك أهون

---

١ انظر: محمد رجب البيومي ، مجلة الحج العدد ١٢ السنة ٨٨.

٢ محمود شيت خطاب ٢٥٩

خطًا من الذين سلوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف١ .

* * *

١ انظر: جمعة علي الخولي: معاملة الرسول ﷺ لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧، وانظر: محمد رجب البيومي، مجلة الحج العدد ١٢ السنة ٨٨.

obeikandl.com